

معركة قتل الوقت

بقلم الأستاذ س . ق

العالم كله مشغول في هذه الأيام بمعارك البر والبحر والجو التي تشغل الأمم والأفراد وتستغرق نشاطهم وتفكيرهم إلا المصريين فانهم مشغولون بمعركة أخرى أهم من هذه المعارك جميعا . تلك هي المعركة الخالدة ، معركة " قتل الوقت " التي تشغل بال العدد الأكبر من سكان وادي النيل !

فكل من يلقاك يقول لك : إنه كان " يقتل الوقت " . وهم جميعا ضيقو الصدر بهذا الوقت الذي يعود حيا كلما قتلوه . وهم يقتلونه مرة على المقاهي في لعب النرد والدومينو والشطرنج أو التطلع إلى المسارة وإلى الرانجات والفدييات بعيون كلها شره مريض ، ومرة في قرقرة اللب والقبل والقال والغيبة والتميمة والسعاية بين الناس ، ومرة في قراءة الوريقات المساقطة التي تلي أقذر الغرائز الحيوانية في النفس البشرية ، ومرة فيما هو أخطر من هذا وذلك ! ومع هذا الجهد كله فما يزال الوقت يغالب هؤلاء المجاهدين في المعركة ، وما تزال تتلقى في اليوم عشرات منهم يشكون إليك فراغ صبرهم من هذا الوقت العنيد الذي لا يقتل ولا يموت ! وما هو هذا الوقت الذي يقتله هؤلاء المساكين ؟ هو العمر الذي لا يخطر إلا مرة واحدة في الوجود . هو الرصيد المحدود الذي ينقص كل يوم ولا يزيد . هو الكثر الذي لا يعوض ما يتفق منه على مر الأيام . هو الدقائق والثواني والمخظات التي تمنحها الحياة لأبناء النساء فإذا مضت في الغيب المجهول فإن تراءى بعد ذلك ولن تعود !

فيا لمساكين لأشقياء !!

إن أبناء هذه الأرض لا يمكنون أنفسهم من هذا الوقت الذي يقتله المصريون ، وإن الدقائق بل الثواني بل اللحظات بل مدى الأنفاس المساعدة المأبضة لأعز ما وهبته القدرة الخالدة لهؤلاء اثنا عشر الساعة . وإن الحياة لأنفس ما يحويه هذا الكون من ذخائر وكنوز . ومن كان في شئ من ذلك فليقف هنيئة أمام اللحظة الفاصلة بين الموت والحياة ، تلك اللحظة التي لا تكرر في الزمان ولكنها تفصل بين عالمين لا مشابة بينهما في سمت ولا كنه . . . عالم الموت في عالم الحياة .

إن الفاصل السحيق بين الذرة الحية والذرة الجامدة هو فاصل الملايين التي لا تعد من الأجيال والآباد ، والطاقة التي لا تحد من القدرة الخالقة ، فما بالك بالفاصل الهائل بين الحياة الإنسانية الراقية ، وبين الحنة الميتة الجامدة ؟ . . . ومع ذلك فهذه الحياة الغالية هي التي يقتلها التعساء وهم يقتلون الوقت الثمين !!

غير أن الحياة التي ينفقها هؤلاء رخيصة ، وأنوقت الذي يقتلونه زهيد ، فهي حياة بلا أهداف ، وهو وقت بلا وظيفة . هي حياة في نفوس ضامرة هزيلة ، ووقت لدى أناس فارغين تافهين ، وإنما تغفلوا الحياة وينفُس الوقت حين تكون للنفس هموم عالية ، وأهداف إنسانية ، وحين توسع المعرفة آفاق الأذهان ومرامى النفوس فتعظم الحياة وتكبر ، وتضيق فسحة العمر عن المطالب والآمال ، وتقصُر عن مدى انتطلع والطموح .

وهؤلاء الذين "يقتلون الوقت" إنما يتخاصون من عبء ثَقِيل ، وبضاعة لا يستطيعون تصرّفها ، فلهُم بعض العذر ، لأنهم لم يتعودوا إتفاق الوقت فيا فيفيد ، ولم يمرنوا على الانتفاع بفرصة الحياة القصيرة المحدودة ، ولم تزود نفوسهم في الصغر بما يغذيها من المطامح والآمال ، ولم تفت أنظارهم إلى الشؤون العامة والهموم الإنسانية التي ترفع من شأن الحياة .

وكثير منهم لا تسفاهه حتى هموم النقمة الحَقيرة . فالحياة كلها فراغ ، والوقت لديه طويل ممل لا تملؤه سوى التسيّبات الزهيدة ، فهو يضيق به ويحاول أن يقتله كل يوم . وكثيرا ما يسقط وهو في غمرة المعركة إلى الدرك الأسفل من الانحلال .



ولست أتوى المضى في هذا "الشعر" وأنا أحاول علاج المسألة من ناحيتها الاجتماعية ، وإن كان كل إصلاح اجتماعي ينبغي أن يحسب فيه حساب العوامل النفسية بجانب العوامل الأخرى الكثيرة ، فلننظر في الوسائل التي تنهى بها المعركة الخائنة بين الوقت وبين المصريين ! إن الطفولة هي المرحلة التي تبذر فيها بذور العادات والأخلاق ، ونسوء الحظ أننا لا نستطيع السيطرة على هذه المرحلة ولا توجيهها في البيوت وفي وسط الأسر ، طالما أن الأسرة المصرية متخلفة في عقليتها ، وطالما أن البيت المصري لا صلة بينه وبين المدرسة تبعاً لذلك .

وكل ما نملكه أن نستنفذ أنظار الأسر المثقفة — وهي قليلة — إلى العناية بمرحلة الطفولة على نسق خاص وإلى العناية بالتوجيهات التي ستحدث عنها في المرحلة التالية حينما تسلم المدرسة الأطفال وتستقذمهم من فساد البيئة في البيوت .

فالمدرسة هي المعمل الوحيد المطالب بصهر هؤلاء الأطفال وإعادة صياغتهم ، وهي مهمة صعبة جدا ولكنها ليست مستحيلة . غير أن المدرسة في وضعها الحاضر لا تصلح لأداء هذه المهمة ، طالما أن العقيدة المسيطرة عليها هي عقيدة التعليم المحدودة لاعقالية التربية الشاملة .

وقبل أن يقودنا هذا الكلام إلى اليأس نبادر فقول : إن كل شيء ممكن حين تخلص النية وتتوجه العزيمة ، وليت الأساتذة ينشئون ما هم فيه من غبن ، وما يرهق أعصابهم من جهد ، وما يغفل نشاطهم من قيود ، فيعملوا على تحسين صياغة الجيل الجديد .

وقد عالج الكثيرون مشكلة الوقت تحت عنوان "تمضية أوقات الفراغ" وأنا أكره تسمية الوقت الزائد عن العمل الرسمي بوقت الفراغ ؛ بل أنا أميل إلى احتسابه وقتاً أساسياً لا تقل قيمته إن لم تزد على وقت العمل الحرفي .

وقد يقضى هذا الوقت الزائد في اللهو والتسلية أو الراحة والاستجمام ، ومع ذلك لا يعد في نظري "وقت فراغ" ولا أجزئ هذه التسمية ، التي تشعر بأنه أقل قيمة من وقت العمل في حياة الإنسان . ووجه المسألة كله يتغير حين نلقى في روع الأطفال والصبيان وال كبار أن الحياة أعز ما وهبته القدرة الخالقة للأحياء ، وأثنى الكنوز التي يدخرها أبناء الفناء ؛ وأن العمر هو الفرصة الذهبية التي لا تعود ولا تعوض ليصنع الإنسان فيها شيئاً مثralه ولأبناء جنسه ، وأن وقت الجهد والعمل ، ووقت اللهو والتسلية ، ووقت الاستجمام والراحة تشترك جميعها في تحقيق انتظام حياة الفرد والجنس ، وإثمارها أفضل الثمرات ، وحفظها من عوامل الهدم والآفات . وإذ ذاك يغدو الوقت كله ثميناً في نظر الناس ، وترتفع قيمة الحياة الإنسانية ، ويتجه النشاط البشري إلى غايات أوسع يستغرق تحقيقها أضعاف عمر الأفراد . ولكن كيف نحقق هذا التوجه ؟

إن النصائح والإرشادات لا تجدى ، وإن محاولة مخاطبة الأطفال بعقلية الكبار لا تصلح ، وقصارى ما نصل إليه إذا سلكتنا سبيل الخطب المنبرية أو حاولنا أن نجعل الأطفال يشكرون بعقولنا أن زهدهم في هذه النصائح ، أو أن نسرق طفولتهم وننضجهم قبل الأوان !

ولمّا نستطيع أن نصل إلى استئلال جميع الأوقات ، وإلى تعظيم الحياة في نفوس الأطفال بعدة وسائل عملية غير الوعظ بالخاف ، وغير القسر على العمل المل والتكليف الثقيل . وأول ما يفيدنا في هذا السبيل تعويدهم القراءة وتحبيبها إلى نفوسهم بكل الوسائل : بترين الكتب وتقييمها ، وباستئارة غريزة الملك في نفوسهم مما يحفزهم إلى اقتناء الكتب ثم الاستفادة منها ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا كانت الكتب نفسها مشوقة جذابة بشكلها وبموضوعاتها .

وهذا يجئنا إلى الكلام عن فقر مكتبة الأطفال في مصر وإفقارها إلا من القليل النادر من الكتب المشوقة الجميلة . وقد كتبت عن "القراءة" موضوعاً كاملاً في العدد الماضي فلا أعيد هنا ما سبقت كتابته .

غير أنني أربط بين عادة القراءة وبين الاعتزاز بالوقت والتسامي بالحياة ، إذ القراءة على هذا النحو تصبح عادة كلما تقدم الزمن بالطفل ، وهي عادة حميدة تعصمه من الضيق بالوقت ، وتجدهد بين حين وآخر فلا يجمد ولا يتحجر ، وهذا التجدد يحدد آماله وأهدافه في الحياة ، فتعظم في نفسه وتسامي في إحساسه ، ويحس بأزمة في الوقت فيحفظ بالساعات والدقائق لقضائها فيما يحقق أهدافه وآماله .

وقد تصبح القراءة للعرفة هدفا في ذاتها ، وهذا أرقى ما تصل إليه النفس البشرية من تعظيم الحياة وأسموها عن العبث الفارغ واللهو العقيم .

فاذا لم نحدد من بعض الأطفال استعدادا لإنفاق نشاطهم الكامن في القراءة ، فعلى أن نوجهه وجهة عملية باستغلال غريزة " التكوين والتحليل " . والأشغال اليدوية وفلاحة البساتين من أهم ما يلي نشاط هذه الغريزة . ولكن ينبغي أن تكون لها أهداف عملية ، ولا ينقضى وقت الأطفال في العبث بهما أو في صنع أشكال ونماذج لا نفع لها في الحياة العملية . ذلك أن أشد ما يثير نشاط الطفل وحرصه على العمل أن يرى في النهاية ثمرة جهده شيئا عمليا نافعا في المدرسة أو البيت أو السوق . ولهذا يجب أن تكون الأشغال عملية بمعنى الكلمة وأن تحاول المدرسة تصريفها في السوق أمام أعين الأطفال الذين قاموا بصنعها ، ويأخذوا نواتج عملهم بعض ربحها ليدوقوا لذة الكسب وثمره العمل ، فيصبح عادة لهم في الأوقات التي تفيض عن العمل الرسمي فيما بعد .

ومثل الأشغال والفلاحة ، تدريب التلاميذ على الأعمال التجارية الخفيفة في " كتين " المدرسة مع منحهم شيئا من ربح " الكتين " في مقابل مجهودهم لنفس اسبب انذى أشرنا إليه فيما تقدم .

فإن لم نستطع إنفاق نشاط التلاميذ في القراءة ولا في الأعمال اليدوية أو المراتة على العمل التجارى ، ففى الألعاب الرياضية متسع للجميع ، وقد تحدث الكثيرون عن جدوى هذه الوسيلة في إنفاق ما يسمونه " أوقات الفراغ " فلا حاجة إلى تكرار كلام معاد .

ولولا أن أخشى اتهامى بالإغراق في " الخيال لنصحت بأن تكون الخدمة الاجتماعية جزءا من برامج التربية في المدرسة في المجال المناسب للتلاميذ والطلاب ، فليس هناك من الوسائل ما يرفع شأن الحياة وقيمة الوقت من الاشتغال بأهموم العامة والخدمة الاجتماعية .



إلا أن المدرسة وإن استطاعت أن تبذر بذور العادات التي تنفع في الشباب والكهولة أضيق من أن تسع الحياة كلها وأضعف من أن توجه المجتمع توجيهها كاملا ، ولا سيما في البيئة المصرية التي تقاوم تعاليم المدرسة كل المقاومة .

والعمل والقراءة والألعاب لا تكفى في " معركة الوقت " فلا بد من سلوكيات أخرى ، سلوكيات بريئة لا تهبط بالنفس الإنسانية ولا تصغر من قيمة الحياة وأغراضها ، سلوكيات غير القمار وسباق الخيل والنرد والندومينو وقراءة اللوريات الساقطة والتطلع إلى الوجوه وقرقرة اللب وتناول أعراض الناس ولطوينة بين العباد .

ومصر على العموم تنقصها مباح الحياة ، فتحيم عليها كآبة قائمة ، ليس هنا مجال تفصيل أسبابها (وقد فصلتها في مقال بالعدد الثالث من السنة الأولى بهذه المجلة) ولكن أقول هنا : إن هذه الكآبة تجر إلى كثير من السلويات انضارة كالخمر والمخدرات والسعار الجلسي بل إلى الجريمة في كثير من الأحيان .

ولعل كثيرا من القراء لا يعرفون أن قلة السلويات وكآبة الحياة في الصعيد وضيق مجال التصريف الطبيعي للطاقة الجسدية والخيالية لدى الشبان تدفع بهم إلى ممارسة جرائم اسرقة وانهب والقتل في بعض الأحيان ، لمجرد اظهار الفتوة وتصريف الطاقة الزائدة والتلهي بهذه التسفيه المفزعة ، فإذا سلموا من السجن لم تتأصل الجريمة في نفوسهم وعزفوا عنها بمجرد تقدم السن ونفاد الطاقة !

والظلام الذي ينجح على الريف من أشد عوامل الكآبة وتلمس السلويات الضارة في المخدرات وسواها ، فهو لا يقل عن الفقر في إيجاد هذه الحالة وفي ضيق الصدور بالوقت مع ما يبذله الريفيون من جهد مضمّن في أعمالهم الزراعية .

ومصر أكثر بلاد الله احتفالا "بالموالد" وهذه الاحتفالات هي حياة من حيل العقل الباطن للتفيس ، ومع ما يخلل هذه الموالد من نقائص ومساخر وتوكيد للخرافات والشعوذات فإنني لا أشير بالتقليل منها أو الضغط عليها ، ما هي إلا حيلة كما قلت للتفريج وللإضاءة وللتنورة على الظلام ، ولإنفاق النشاط الدفين الذي لا يجد له متصرفا في أوساط العوام .

ولعل هذا الاتجاه النفسي إلى الإكثار من حفلات الموالد والأذكار ، يهديننا إلى وسيلة من وسائل التفريج والبهجة ، فحصر — مع كثرة الموالد — قليلة الأعياد والمواسم ويجب أن يكون من برنامج الإصلاح الاجتماعي الإكثار منها والتنوع فيها ومحاولة إدخال البهجة عليها .

وعندنا فيما عدا المولد البسوي والمحمل ووفاء النيل وشم لتسمي موسم أخرى يمكن افتتاحها افتتاحا رسميا في جميع أنحاء البلاد بمواكب ومظاهرات وزينات ومباح تملأ نفوس هذا الشعب الحزين بالبهجة والنشاط والسرور ، كهيد رأس السنة الحجرية وموسم حصاد القمح وموسم جنى القطن ومواسم الألعاب الشعبية . وكل ما في هذه المهرجانات من مناتب مغفور إذا نظرنا إلى قيمتها النفسية في خلق جو من المرح والسرور والتسلية البريئة التي لا تضر ضررا جوارحا وأخذرات .

وتجميل المدن وانقري وتزيينها بالمتزهات والمناظر وإنشاء "كورنيش النيل" وإقامة سباق للزوارق وأحر للسباحة وفتح المعارض الصناعية والزراعية والحيوانية ، وأمثال هذه المناظر والوسائل كلها مبهج ومنشط ومزيل للكآبة الجاثمة على الصدور ، وفي ذلك ما يخفف وطأة فقره ويحلل الزمن عزيزا والحياة غالية حتى عند الجماهير .

وبعد فإن مما يستحق الذكر في هذا المجال النوادي الخاصة. فالنادي الذي يضم طائفة متجانسة من العقليات والبيئات هو خير مكان للاجتماع والتسلية البريئة، ولكننا أحننا نوادينا ملاهى للقفار والشراب وألعاب الدومينو والرد والشطرنج ، وذلك لخلو حياتنا من المباح البريئة من جهة ، ومن المموم العالية من جهة أخرى .

وأخشى أن أشير بالإكثار من النوادي ، فتكون ترجمة هذه الإشارة الإكثار من المقاهي الخاصة باسم "النادي" ما دامت على هيئة نوادينا الحاضرة . فتغير المظاهر والأشكال لا يندى نقعا ما دامت الحقائق والأفكار من ورائها لم تبدل .

ولهذا يجب أن ينصرف همنا في المدرسة وفي الصحف وفي الاذاعة إلى التذكير من شأن الحياة وإلى غرس عادة القراءة وحب المعرفة والاستغلال بالمسائل العامة ، حتى يكون هذا كله رصيذا ثابتا في نفوسنا يدفعنا إلى الحرص على الزمن ، وإلى استغلاله في العمل أو الرياضة أو الاستجمام مع الاعتزاز به ومعرفة قيمته ، في البيت أو النادي أو الديوان .

ومما يذكر في هذا المجال حادثة طريفة وقعت في أحد المقاهي ، ذلك أن بعض الجنود البريطانيين كانوا يرتادونه في أيام كثيرة ، وفي كل ليلة كانت أنظارهم تقع على جماعة من الموظفين المصريين يلعبون الزرد ساعات طويلة ، وفي يوم من الأيام وقفوا يسألون اللاعبين : أفى كل يوم تلعبون هكذا ؟ قالوا : نعم . قالوا : أليس لكم مشاغل أخرى تمنعكم من المواظبة على تمضية هذه الساعات وأتم جنوس ؟ قالوا : لا . قالوا : ألا تقضون بعض الأوقات في مزاوله ألعاب رياضية ؟ قالوا : كلا !

وعندئذ انما لوا عليهم ضربا وهم يقولون : أليس لكم أولاد ؟ أليست لكم بيوت ؟ ألا يشغلكم شيء من هموم الدنيا ؟ ... وكانت "علقة ساخنة" تحدث بذكرها أهالي حلوان !

وخير ما أختم به هذا المقال تلك الأقصوصة الصغيرة عن رجل سار في مقبرة قوم لا يعرفهم ؛ فوجد على كل مقبرة لوحة كتبت فيها بعض الكلمات . . . وقرأ في لوحة منها : "فلان ولد وعاش ستة ومات" وفي لوحة أخرى : "فلان ولد وعاش شهرا ومات" وفي لوحة ثالثة : "فلان ولد وعاش يوما ومات" وفي لوحة رابعة : "فلان ولد وعاش ساعة ومات" ... وهكذا مضى في قراءة اللوحات فلم يجد أن أحدا من هؤلاء الموتى زاد على أعوام قصيرة ؛ فعجب وسأل بعض أهل البلد : لماذا تقصر الأعمار عندكم ولا يعيش الواحد منكم إلا بضعة أعوام ؟ فكان الجواب : ليست هذه أعمار من ماتوا ، وإنما هي أعمار أعمالهم النافعة في حياتهم !

فكم عندنا ياترى ممن "ولدوا وماتوا في لحظات" ؟ إنهم ولا شك أغلبية عظمى ، بل لعل كثيرين منهم لم يولدوا أصلا على الرغم من سجلات المواليد والوفيات ! ! !